صور الفساد الاقتصادي في القصص القرآني

حمزة عبد الله سعادة شواهنة

كلية العلوم التربوية جامعة القدس المفتوحة ـ قلقيلية ـ فلسطين

hamzahamza1985@outlook.sa

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فهذا البحث بعنوان: (صور الفساد الاقتصادي في ضوء القصص القرآني)، يتناول نماذج قرآنية لأُناس وقعوا في الفساد الاقتصادي، ثمّ استنباط أبرز الجوانب التربوية من تلك النماذج.

أولاً: إشكالية البحث:

هذا وتتمثل مشكلة البحث في السؤال الرئيس الآتي:

مَا هي النماذج السابقة التي وقعت في السلوكيات الاقتصادية السلبية من خلال آيات القرآن الكريم؟

وتتفرّع عن هذه الإشكالية ثلاثة أسئلة أساسية:

1- ما المقصود بالفساد الاقتصادي؟

2- ما المبادئ التربوية المستنبطة من عرض القصص القرآني لنماذج من الفساد الاقتصادي؟

3-كيف يمكن الاستفادة من القصص القرآني في علاج ظاهرة الفساد الاقتصادي؟

ثانياً: أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق الآتي:

1-التعرف على معاني الفساد الاقتصادي.

2-استنباط المبادئ التربوية من خلال عرض القرآن الكريم لنماذج ارتكبت الفساد الاقتصادي.

3-بيان الآثار السيئة للفساد الاقتصادي من خلال دراسة القصص القرآني.

ثالثاً: أهمية البحث:

يكتسب هذا البحث أهميته من الاعتبارات الآتية:

1- أهمية الموضوع نفسه الذي تبحث فيه الدراسة، وهو ظاهرة الفساد الاقتصادي.

2- أن هذا البحث يتعلق بظاهرة مستشرية لها علاقة بالواقع المعاش، حيث تؤكد تقارير المنظمات الدولية أنّ حجم الفساد المالي في العالَم الإسلامي تجاوز نصف الفساد العالمي،[1] إضافة إلى تشريع بعض الدول في هذا الزمن لقوانين تُشَرعِن الفساد الاقتصادي وتَحميه، وتُجرِّم منتقديه في أغلب المجتمعات الإسلامية، فضلاً عن قيام بعض الحكومات بإلزام مواطنيها بصور من التعاملات الاقتصادية التي تؤول في نهايتها إلى صور من الفساد الاقتصادي.

3- أن هذا البحث يخدم جانب التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية؛ إذ هي تتناول موضوعاً هامّاً من خلال آيات القرآن الكريم، المصدر الأول للعلوم الاجتماعية.

4- توضيح منهج القرآن الكريم في علاج ظاهرة الفساد الاقتصادي.

رابعاً: الدراسات السابقة:

مِن الدراسات السابقة المتعلقة بالفساد الاقتصادي في ضوء قصص القرآن الكريم بحث موسوم بـــ: (الفساد الاقتصادي وعلاجه من المنظور الإسلامي)، للدكتور أبو غزالة(2).

تعرّضت الدراسة السابقة للفساد الاقتصادي في ضوء القرآن الكريم، واستلهام بعض الدروس من تلك الآيات، وبعد البحث في الدراسات السابقة لم أعثر على أي دراسة قرآنية منشورة عالجت هذا الموضوع سوى هذه الدراسة، على الرغم من كون الدراسة المشار إليها قد طرقت مسألة الفساد الاقتصادي بعمومه، و لم تبحث هذه المسألة من خلال القصص القرآني.

لذا يتبيّن لنا ندرة الدراسات القرآنية التي عالجت هذا الموضوع، وحاولتْ بيان هذه الظاهرة من خلال قصص القرآن الكريم فحسب.

---

(1) لمزيد من التفصيل، يمكن الاطلاع على تقارير منظمة الشفافية الدولية العالمية على الموقع الالكتروني التالي: (www.transparency.org)

(2) الفساد الاقتصادي وعلاجه من المنظور الإسلامي، أبو غزالة.

خامساً: ما يضيفه البحث:

ما ندّعيه لهذا البحث من فروقات عن غيره وما يضيفه علمياً هو:

1- اتباع هذا البحث منهج البحث العلمي، وعليه فهذا البحث بحث قرآني موضوعي، اتّبع الباحث فيه المنهجين الاستقرائي والاستنباطي.

2- إبراز هذا البحث ظاهرة الفساد الاقتصادي كما عرضَتْه قصص القرآن الكريم.

سادساً: حدود البحث:

يعتمد هذا البحث على الآيات القرآنية التي تضمّنت نماذج ارتكبت الفساد الاقتصادي، كما سيعرّج الباحث على التفاسير الأصيلة التي تناولت ذلك.

سابعاً: منهج البحث:

طبيعة البحث وأهدافه تتطلب استخدام المنهجين الاستقرائي والاستنباطي، بحيث يستقرئ الباحث الآيات التي قصّت نماذج بشرية فسدت اقتصادياً، ثُم استنتاج المعاني التربوية المستنبطة من تلك النماذج.

ثامناً: خطوات البحث:

تمّ تقسيم البحث إلى مقدمة، وثلاثة مطالب، وخاتمة، كما يأتي:

المقدمة: وتضمّنت إشكالية الموضوع، وأهدافه، وأهميته، وحدوده، والدراسات السابقة، ومنهجية البحث.

المطلب الأول: معنى الفساد الاقتصادي ونظائره في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: صور الفساد الاقتصادي في ضوء قصص القرآن الكريم.

المطلب الثالث: المبادئ التربوية المستنبطة من عرض القصص القرآني لصور من الفساد الاقتصادي.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

المطلب الأول: معنى الفساد الاقتصادي ونظائره في القرآن الكريم

يبيّن هذا المطلب المقصود بالفساد الاقتصادي، من خلال تأصيل المعنى اللغوي والاصطلاحي لهذا المصطلح، ثم يعرّج على ذكر نظائر الفساد الاقتصادي في التنزيل العزيز، وذلك على النحو الآتي:

الفرع الأول: معنى الفساد الاقتصادي

أولاً: الفساد لغة: قال ابن منظور: «الفساد: نقيض الصلاح، وتفاسد القوم: تَدابروا وقَطعوا الأرحام؛ واستَفسد السلطانُ قائدَه: إذا أساء إليه حتى استعصى عليه. والمفسدة: خلاف المصلحة. والاستفساد: خلاف الاستصلاح. وقالوا: هذا الأمر مفسَدةٌ لكذا أي: فيه فساد»[1].

ومن خلال النظر فيما سبق أعلاه، يَلحظ الباحث أنّ الفساد في أصله اللغوي يدلّ على انعدام الصلاح واختلال التوازن.

ثانياً: الفساد اصطلاحاً: يُعرَّف الفساد في اصطلاح عِلم الاقتصاد بأنه: «أخْذ المال ظُلما،...والمفسدة: ضدّ المصلحة»[2].

ولو أمعنّا النظر فيما تقدَّم، فإننا نلحظ أنّ المعنى اللغوي لا يختلف عن المعنى الاصطلاحي كثيراً، فهما يدوران حول معنى انعدام الصلاح.

ثالثاً: الاقتصاد لغة: لفظ الاقتصاد راجع إلى تعريف عِلم الاقتصاد، والاقتصاد لغة: «إتيان الشيء. تقول: قَصَدْتُهُ، وقَصَدْتُ له، وقَصَدْتُ إليه بمعنًى. وقَصَدْتُ قَصْدَهُ: نحوْتُ نحوَه ... والقَصْدُ: بين الإسراف والتقتير. يقال: فلانٌ مقتصِدٌ في النفقة. وقوله تعالى: {واقْصِدْ في مَشْيِكَ}[3]»[4].

رابعاً: الاقتصاد اصطلاحا: يُعرَّف مصطلح الاقتصاد من وجهة نظر أهل الاقتصاد بأنــه: «تدبير شؤون المال، إمَا بتكثيره وتأمين إيجاده وإمَا بتوزيعه»[5]

---

1 لسان العرب، ابن منظور، (فسد)، (3/ 335).
2 القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (فسد)، (ص: 306).
3 [لقمان: 19]
4 الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، مادة (قصد)، (2/ 524 - 525).
5 الاقتصاد الإسلامي في ضوء الشريعة الإسلامية، بابلي، 15.

خامساً: المقصود بمصطلح الفساد الاقتصادي: لعلّ التعريف المناسب للفساد الاقتصادي في المفهوم الوضعي-كما يرى الباحث- هو: سوء استخدام المنصب عموماً؛ لتحقيق منفعة خاصة مادية أو غير مادية.

ومن خلال النظر في التعريف السابق، يتضح لأدنى تأمُّل أنّ مصطلح الفساد الاقتصادي في المفهوم القرآني أشمل وأوسع مما هو عليه في مفهوم الاقتصاد الوضعي؛ إذ يحصر المفهوم الوضعي هذا اللون من الفساد في استغلال الوظيفة في الأنظمة الإدارية لمصلحة مالية شخصية، بينما نجد المفهوم القرآني يتوسع في معناه ليشمل كلَّ مخالفة لأحكام الله ﷻ ما دامت تتعلق بالجانب المالي، إضافة إلى اعتباره أنّ أيّ كسْب للمال لا يأتي من طريق شرعي أو إنفاقٍ للمال في غير منفعة يُعدّ فساداً، في حين يُسمّيه الاقتصادُ الوضعي حوافزَ ومسابقات ورفاهية وفائدة، وعليه فإنّ مفهوم الفساد الاقتصادي يتمثل في الخلل في طرق تحصيل المال، وإساءة استخدامه.

إنّ تناول ظاهرة الفساد الاقتصادي في القرآن الكريم له أهمية بالغة، ومما يشير إلى ذلك ورود مادة (فسَد) في القرآن الكريم في أكثر من خمسين موضعاً بمشتقاتها المتعددة،[1] وهذا دليل بيِّن على الأهمّية القصوى التي تحظى بها هذه الظاهرة الاجتماعية، فضلاً عن كثرة الآيات التي ندّدت بالفساد، وتَوعّدت الفاسدين والمفسدين، إضافة لعرض القرآن الكريم نماذج لمن أفسدوا في الجانب الاقتصادي؛ كي يحذر المسلِم من السير في ركاب المفسدين والمترفين.

الفرع الثاني: نظائر الفساد الاقتصادي في القرآن الكريم:

ومن الألفاظ التي تحمِل في طيّاتها معنى الفساد الاقتصادي ما يأتي:

أولاً: الترف: يُلحظ من خلال تأمل نصوص القرآن الكريم التلازم بين لفظي الترف والفساد الاقتصادي في أكثر من موضع، ومن ذلك قوله ﷻ: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ}[2]، وقولُه: {ما أُتْرِفُوا فيه} أي: ما نُعِّموا فيه من طعام وشراب ولباس ومُتع.[3]

1 ينظر، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، عبد الباقي، مادة (فسد)، (ص518-519).
2 [هود: 116]
3 أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الجزائري، (3/ 162).

ثانياً: الإسراف: وردت لفظة الإسراف بمعنى الفساد الاقتصادي في أكثر من موضع في القرآن الكريم، من ذلك قوله ﷻ: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[1].

ثالثاً: التبذير: وردت لفظة التبذير بمعنى الفساد الاقتصادي في أكثر من موضع في القرآن الكريم، من ذلك قوله ﷻ: {وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}.[2]

1 [الأنعام: 141]
2 [الإسراء: 26 - 27]

المطلب الثاني: صور من الفساد الاقتصادي في ضوء قصص القرآن الكريم

تتنوّع أسباب الفساد الاقتصادي في الدول النامية خاصة، وهذه الأسباب بعضها يعود لعوامل داخلية، وبعضها الآخر يعود لعوامل خارجية، وتتمثل العوامل الداخلية في محدودية الفرص الاقتصادية المتاحة للمواطنين لصالح فئة من الأثرياء والمتنفذين، أمّا العوامل الخارجية فتتمثل في تدخُّل الدول الاستعمارية في موارد الدول النامية، وكذلك في الاستثمار الأجنبي والمنح الدولية ونحو ذلك.

ولخطورة آثار الفساد الاقتصادي، فقد عرض التنزيل العزيز نماذج عديدة لأُناس وقعوا في السلوكيات الاقتصادية السلبية، وسيعرض الباحث للصور التي أوردها القرآن الكريم في هذا اللون من الفساد، ذاكراً الآيات الكريمة التي تضمنت نموذجاً بشرياً وقع فيه، ثُمّ مثنِّياً بتفسير الآيات القرآنية بصورة إجمالية، أو معقِّباً عليها، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: صاحب الجنتين: من الصور التي ذكرها الله ﷻ في القرآن الكريم لمن وقع في الفساد الاقتصادي صاحب الجنتين، قال ﷻ: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا }[1].

فهذه الآيات تحكي قصّة رجلَين، كان أحدهما كافراً بما أعطاه الله ﷻ من الأموال، حتى

1 [الكهف: 32 - 45]

جرَّه ذلك إلى إنكار البعث والقيامة، ومن شكّ في البعث فهو كافر، ولهذا قال له صاحبه: {أَكَفَرْتَ}؟، وقد صرّح القرآن الكريم بافتتان ذلك المغرور بالمال؛ وذلك بتفوُّهه بكلمة الجحود: {مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـذِهِ أَبَدًا}[1]؛ وذلك اغترار منه، لّما رأى في بستانَيه من الثمار والأشجار والأنهار، ظنّ أنها لا تَتلَف؛ وذلك لقلّة عقله، وضعف يقينه بالله ﷻ، وإعجابه بالدنيا وزينتها، وكُفره بالآخرة؛ ولهذا قال: {وما أظن الساعة قائمة}، ثمّ ازداد غيُّه فقال بلسان المرتاب: {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا}[2].

وتَضمنت القصّة أنه ينبغي على المصلِحين القيام بواجب الاحتساب في الجانب الاقتصادي، فهذا المؤمن جادل الكافرَ الجاهل، وأنكر عليه اغتراره ببستانيه، فقال له موبّخاً: {أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا}، ثمّ قال له: {فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرا مِنْ جَنَّتِكَ}، كما تضمّنت القصّة أيضاً أنّ الواجب على الأثرياء قبولُ نصيحة المحتسبين المشفقين؛ لأنّ في مخالفتهم الهلاك العاجل، كما أَهلك اللهُ ﷻ بستانَي هذا الجاهل لّما رَدّ نصيحةَ المؤمن المشفق عليه، ومما يشهد للاحتساب في الجانب الاقتصادي قولُه ﷻ: {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}[3].

ويُلحظ من القصّة كذلك أنّ الاغترار بزينة الحياة الدنيا، والافتخارَ بمتاعها سبيلُ الخاسرين المترَفين، ومن النماذج التي قصّها القرآن الكريم للمتعالين قارون، حيث ادّعى قائلاً: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}[4]، فكذّبه الله ﷻ بقوله: {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}[5]، وكذلك أَنكر ﷻ على مَن يظنّ أنّ إعطاءه علامةُ كرامة له، فقال: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ}[6]، وعليه فمِن شُكْر نعمة الثراء ألاّ يفتخر صاحبُها بها على الآخرين.

ثانياً: أصحاب الجنة: مِن الصور التي ذكرها الله ﷻ في القرآن الكريم لأُناس وقعوا في

1 [الكهف: 35]
2 [الكهف: 36]
3 [الأعراف: 85]
4 [القصص: 78]
5 [القصص: 78]
6 [المؤمنون: 25]

الفساد الاقتصادي أصحاب الجنة، وهم نموذج لمجموعة من الأثرياء الَّذين أعماهم حبّ المال عن كثير من القيم، فقال ﷻ حاكياً قصتهم؛ مواساةً لنبيّه محمد ﷺ وتذكيراً لأهل قريش: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَن لّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}.[1]

وملخّص القصة هو أنّ هنالك بستان لرجلٍ صالح من أهل اليمن، وكان يؤدّي حق الله ﷻ فيه للفقراء والمساكين، فلمّا مات، قال بَنُوه من بَعده: قَلّ المال وكثُر العيال! وأَجمَعوا أمْرهم وأَقسَموا ألاّ يُعطُوا مسكينًا منه شيئًا، ولم يقولوا: إن شاء الله؛ من زعمهم أنهم قادرون على ذلك، فكانت العقوبة وهم نائمون.[2].

ويلحظ من خلال تأمل قصّة أصحاب الجنة، أنّ الفساد الاقتصادي تمثّل فيها بمنع حق المساكين في البستان، وعليه فإنّ من أسباب دوام النِّعم وازديادها الإحسانَ إلى المحتاجين، كما أنّ من أسباب زَوال النِّعم وحلولِ الهلاك الإساءةَ إلى خَلْق الله، فالنِّعم إن شُكرت قَرَّت وإلا فَرّت، كما تَحوّلت ههنا ثمار الحديقة إلى ثمار محترقة سوداء لا يُنتفع منها بشيء.

ثالثاً: قصة قارون: من الصور التي ذكرها الله ﷻ في القرآن الكريم لأُناس وقعوا في الفساد الاقتصادي قارون، لذا سُمِّي مفسداً بصريح القرآن الكريم، كما قال ﷻ: {وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[3]، وقارون أغنى رجل في العالَم، حيث فَتَح الله ﷻ عليه أبواب الثراء الفاحش، فكان يمثّل القوة الاقتصادية الطاغية في وقته، وحتماً فهو يَملك أيضاً القوّة السياسية في القصر الفرعوني، وهو بذلك يَمتلك مصادر الكلمة المسموعة، لكنّه بدلاً من أن

1 [القلم: 17 – 33]
2 ينظر، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (8/ 197).
3 [القصص: 77]

يقابل نعمة المال وغيرها بشكر الله ﷻ عليها، تَكبّر على المنعِم، وظنّ أنّ ما حازه من الكنوز إنما كان بسبب حنكته وفنّه في الإدارة، فقال ﷻ مبيِّناً عاقبة الغرور، ومحذِّراً كلّ مسلم من عواقبه: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}،[1] فكان رَدُّ قارون سيئاً، حيث حَمَل شتى معاني الفساد، فقال: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي}[2].

حقاً لقد فتَنه الثراء؛ إذ لَمْ يستمع لنداء المصلحين من قومه، ولَمْ يشكر نعمة ربه ﷻ، فكانت نهايته مأساوية، كما حكى ﷻ: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ}[3].

والمتأمل في واقعنا اليومي يرى بكلّ جلاء الثمار المرّة لفتنة الرخاء الاقتصادي، لقد فسدت كثير من الأخلاق والقيم، بل عُطِّلت فرائض الدِّين؛ بسبب فتنة المال، وصدق فينا قوله ﷺ: «إنّ لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال»[4]. لذا فالرخاء الاقتصادي نعمة أو نقمة، ونِعْم المالُ الصالح للعبد الصالح، فيَجدر بكلّ موسِر أن يَشكر المنعِم على هذه النعمة، وأن يَستعملها في طاعته ﷻ.

ويجدر التنبه إلى أنه كما ينبغي مكافحة الفساد الاقتصادي على المستوى الفردي، فإنه ينبغي أيضاً مكافحته على المستوى المؤسسي والجماعي؛ وذلك لأن هذه الصورة أشدّ فتكاً من الصورة الأُولى، ويدلّ على ذلك أنّ قارون لم يكن حينئذ يمثّل فرداً بذاته، إنما كان يمثّل النظام السياسي الحاكِم وقتئذ، ومع ذلك قام المصلحون من قومه بإنكار فساده، واليوم نرى بعض السياسات الاقتصادية السيئة التي تفرضها بعض الدول على الموظفين والعمّال، فضلاً عن ضعف المحاسبة والرقابة من جانب أجهزة الدول، إضافة لِتدنّي الأجور لبعض الوظائف، مما يدفع بعض الموظفين

1 [القصص: 76- 77]
2 [القصص: 78]
3 [القصص: 81]
4 سنن الترمذي، كتاب أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، حديث رقم (2336)، (4/ 569)، قال الألباني: «صحيح».

لارتكاب صور من الفساد الاقتصادي، ولذا يتعين على الغيورين اليوم أن يَتصدّوا لهذا الفساد الذي أصبح ظاهرة كونية، فمَن لا يهتمّ بحقوق إخوانه المسلمين المظلومين فليس منهم.

ويُلحظ من خلال تأمل قصة قارون، أنّ صورة الفساد الاقتصادي تَمثّلت فيها بتفاخره بملابسه، وتكبُّره بسبب ثرائه، إضافة لمنعه حقَّ الفقراء من كنوزه، وفي نسبته الفضل لنفسه.

ومن الدروس المستفادة من قصة قارون أيضا، أنّ أمَد الفساد الاقتصادي قصير، فلا بدّ أن يأتي يومٌ ؛ لينال المفسدُ عقابه، مهما بَلَغ من أسباب الحيطة، كما حكى ﷻ: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ}[1]، والواقع اليوم خير شاهد على انهيار حكومات بسبب الفساد الاقتصادي الذي تفشَّى في مؤسساتها، ومما يستفاد أيضاً أنّ الإغراءات الاقتصادية قد تتسبب في الغفلة عن العواقب السيئة، قال ﷻ: {وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[2]، كما يُؤخذ منها أيضاً أنّ مكافحة الفساد الاقتصادي تتطلب صبراً، وأنه لا بدّ من قيام المصلحين بإنكار هذا الفساد، وينبغي أن يَتصدّر العلماء الربانيون صفوف الغيورين ممن يَحملون لواء الإصلاح، وأن يعايشوا قضايا الشعوب وهمومها، فإنّ الناس تنتظر من العالِم موقفاً؛ حتى يُصدِّق موقفُه علمَه، كما أشار ﷻ: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}[3].

رابعاً: قوم سبأ: مِن الصور التي ذكرها الله ﷻ في القرآن الكريم لأُناس وقعوا في الفساد الاقتصادي أهل سبأ، وسبأ قومٌ كُفُوا مؤونة الطعام والشراب والسفر، ولَمْ يطلب ربُّهم ﷻ منهم مقابلَ هذه النِّعم المتتابعة إلا شُكرَه عليها، كما قال ﷻ: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا

1 [القصص: 81]
2 [القصص: 82]
3 [القصص: 80]

أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ}.[1]

وعلى الرغم من النِّعم العظيمة التي امتن الله بها على قوم سبأ، إلا أنّ قوم سبأ قابلوا ذلك بالإعراض والاستكبار، والإعراضُ أشدُّ أنواع الكفر، بل بلَغ بهم بطَرُ النعمة بأن اعتَدَوا في الدعاء، بأن قالوا: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}، ففتَح الله ﷻ عليهم السدّ، فأغرق بلادهم، وأتلَف مزارعهم.

وهذه القصة دليل على أنّ من سنّة الله ﷻ في عباده أنه يجزي الشاكرين زيادةً، ويجزي الكافرين خذلانًا، وعليه ينبغي على المسلمين أن يَحذروا من أن يَقَعوا فيما وَقع فيه قوم سبأ، بل ينبغي عليهم أن يتشبّهوا بآل داود عليه السلام في شُكرهم لتلك النِّعم، لذا مدَحهم ﷻ بقوله: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}[2].

خامساً: قوم شعيب عليه السلام: وصورة أخرى من الفساد الاقتصادي، قصّها الله ﷻ في كتابه الكريم، وهي قصّة أصحاب الأيكة، وقد كانوا أمّة كافرة، فبَعث الله ﷻ إليهم نبيَّه شعيبًا عليه السلام يدعوهم إلى التوحيد، وكانوا مع شِركهم يبخسون الناس أشياءهم، ويَنقُصون المكيال والميزان، فهُم جَمعوا بين هاتين الجريمتين، كما حكى ﷻ قول شعيب عليه السلام لهم: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ والْمِيزَانَ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ولا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.[3]

ودلّت الآية السابقة إلى أنّ إنكار شعيب عليه السلام للفساد الاقتصادي الواقع من قومه، قد تَوجّه لصورة الفساد في المعاملات التجارية، فدعاهم إلى إيفاء حق الغير، ونهاهم عن تبخيس السِّلع.

1 [سبأ: 15-19]
2 [سبأ: 13]
3 [الأعراف: 85]

ولّما حذّرهم نبيّ الله شعيب عليه السلام من بطش الله ﷻ، استهزأوا به وقالوا: {أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ}[1]، فانتهى أمرهم إلى أن عاقبهم الله ﷻ عقابًا مستأصِلاً، فأخَذهم عذابُ يومِ الظُّلّة.

وعلى الرغم من مضيّ قرون متطاولة على إهلاك الله ﷻ لقوم شعيب، إلا أنه ما فَتِئ خلَفُهم من العلمانيين يستنكرون وجود صلة بين العقيدة والأخلاق، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية، بل ينكِرون بشدّة تدخُّل الدِّين في الاقتصاد، فأيّ فرْق بين صنيعهم وبين سؤال أصحاب الأيكة: أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا؟

وقول أصحاب الأيكة لشعيب عليه السلام: {إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيد}[2] أي: قال قومُ شعَيب مستهزئينَ بنبيِّهم: إنَّك يا شعيب لأنت الحليمُ الرشيد في أمرِك لنا بتَركِ عبادةِ الأصنامِ، وتَركِ بَخسِ النَّاسِ، يعنونَ بذلك وصفَه عليه السلام بالسَّفَه![3]

وما زالت السخرية من دعاة التوحيد الحق سنّة جارية، فكم يَتهكّم اليوم ممّن يُدعَون بالمثقفين والإعلاميين بالمحتسِبين السالكين نهج الرسل عليهم السلام، ولا ذنْب لهم إلا أنهم يَدْعُون إلى ما دعا إليه الرسل عليهم السلام أقوامَهم من تطبيق الدِّين بشموله، وعدم الفصل بين العقيدة والشريعة، لا سيما فيما يتعلق بالتعاملات المالية!

ويتبيّن من إنكار شعيب عليه السلام على قومه، أنّ داعية التوحيد ينبغي أن يكون ابن عصره، يعيش واقعه، ويسمع هموم الناس، ويعالج أمراض مجتمعه، وهكذا كان منهج الرسل عليهم السلام، فكان كلّ نبيّ يعالج أدواء قومه خاصة، ومن هنا يتحتم على الداعية الحكيم أن يحارب الفساد الاقتصادي المعاصر بشتى أنوعه، كالربا والجشع وتقديس المال والاستهانة بالمال العام ونهب الثروات والشفاعة المحرمة والرشاوى وتبييض الأموال والتجارة بالمحرمات ونحوها.

ويُلحظ من خلال تأمُّل فساد قوم شعيب عليه السلام، أنّ الملكية المطلَقة للأموال من الوسائل التي تُعِين على ظهور هذا اللون من الفساد، وعليه لا بدّ أن تكون الأمور المالية تحت ضوابط صحيحة

1 [هود: 87]
2 [هود: 87]
3 ينظر، الكشاف، الزمخشري، (2/ 420).

ومحسوبة كما عرضها الأنبياء عليهم السلام، وإلا فالفساد والاعتداء على حقوق الآخرين هو المصير الذي ينتظرها، فلو كان الناس أحراراً في التصرف بأموالهم لَعمّ الظلم.

سادساً: أهل مكة: يحدّثنا القرآن الكريم عن صورة أخرى من الفساد الاقتصادي، وهي قصة أهلُ مكة، وسمّى الله ﷻ مكّة بالقرية التي كَفرت بأنعُم الله، فقال ﷻ: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}.[1]

كانت مكّة آمِنة مطمئنّة، وتحترمها الجاهلية الجَهْلاء حتى إنّ أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يُثيره مع شدّة الحميّة فيهم، فحصل لها من الأمن التام ما لَمْ يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع، وكانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكنْ يَسّر الله ﷻ لها الرزقَ يأتيها مِن كل مكان، فجاءهم رسول منهم، يعرِفون أمانته وصِدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذّبوه وكَفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ﷻ ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن؛ وذلك بسبب كُفرهم وعدم شُكرهم {وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}[2].[3]

تُعلِّمنا هذه القصة درسًا عظيمًا، وهو أنّ كفران النِّعم أحد أسباب الإهلاك، وهذا ما حدث مع كفّار أهل مكة، حيث كَفروا بنعمة الله ﷻ، وسَخّروا النِّعم في معصيته، فأذاقهم الله ﷻ لباس الجوع والخوف بعد أن كان عيشُهم رغيداً.

سابعاً: قوم عاد: تحكي الآيات الكريمة عن صورة أخرى من الفساد الاقتصادي، وهو قوم عاد، فحذّرهم هود عليه السلام من سلوكهم الاقتصادي الخاطئ، كما حكى ﷻ إنكارَه عليهم: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}.[4]

1 [النحل: 112 – 113]
2 [آل عمران : 117]
3 ينظر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (3/ 162).
4 [الشعراء: 128-131]

قال ابن كثير رحمه الله: "وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكَر عليهم نبيُّهم عليه السلام ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يُجدِي في الدنيا ولا في الآخرة".[1]

ويُؤخذ من الآية ضرورة قيام الدعاة والمؤثِّرين بواجب إصلاح الفساد في الجانب الاقتصادي، فهذا هود عليه السلام كان مع دعوته إلى التوحيد ينبِّه قومه إلى ما يقعون فيه من أخطاء سلوكية مخالفة لأمر الله ﷻ، ويُلحظ كذلك ضرورة تخلُّق المحتسِب أثناء إنكاره للمنكرات الاقتصادية بالشفقة على المخاطَبين، كما ظهرت ههنا شفقةُ هود ــ عليه الصلاة والسلام ــ وهو ينكِر على قومه الإسرافَ والتفاخرَ الذي اتسم به سلوكهم الاقتصادي.

ثامناً: قوم ثمود: من النماذج التي ذكرها الله ﷻ في القرآن الكريم لأُناس وقعوا في الفساد الاقتصادي قوم ثمود، فحذّرهم صالح عليه السلام من الترف، كما حكى ﷻ توبيخه لهم: {أتتركون في ما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون}.[2]

لقد حذّر صالح عليه السلام قومه مِن أن تَحلّ بهم النِّقم؛ فإنهم كانوا يتّخذون بيوتهم المنحوتة في الجبال أَشَراً وبَطَراً وعَبَثاً، من غير حاجة إلى سُكناها، وكانوا حاذقين متقنين لِنَحتها ونقْشها، كما هو المشاهد مِن حالهم لمن رأى منازلهم، ولهذا قال لهم: {فاتقوا الله وأطيعون}، والمعنى: أقبِلوا على عمل ما يعود نفعُه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلَقكم ورزقَكم؛ لتوحِّدوه وتعبُدوه وتسبِّحوه بُكرة وأصيلا[3].

ويجدر التنبه إلى أنّ الذم الوارد ههنا لقوم ثمود غير متوجِّه لمجرد البناء، إنما أَنكر عليهم صالح عليه السلام ذلك؛ لأنهم استَخدموا هذه المباني المنحوتة في الجبال كوسيلة للاستكبار عن طريق الإسراف المفرِط في إنشائها مِن دون حاجة لسُكناها، كما حكى ﷻ: {قَالَ الْمَلأُ الّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ

1 ينظر، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (6/ 152).
2 [الشعراء: 146-152]
3 ينظر، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (6/ 156).

قَالَ الّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنّا بِالّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}،[1] وعليه فلا حرَج على الإنسان أن يبني بيتاً يؤويه وأهلَه؛ فإنّ الله ﷻ ذكَر البيوت وأنها سكَن في جملة النِّعم، فقال ﷻ: {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ}.[2]

ويُؤخذ من خلال تأمُّل فساد قوم ثمود، أنّ من شُكر الله ﷻ على نعمة المباني ونحوها أمور عدة؛ منها: ألا تكون على سبيل العبث، قال هود عليه السلام محذِّراً من ذلك: {أتبنون بكل ريع آية تعبثون}[3]، وكذلك عدم التفاخر والتباهي بالمباني إلى درجة توحي بالركون إليها، إضافة إلى عدم إسراف الأموال في التجميل.

وجملة القول: إنّ أساليب الوقاية من الفساد الاقتصادي في الإسلام ترتكز على مجموعة من المعايير الاقتصادية، منها حسن الاختيار في التعيين، وتطبيق المبدأ الاقتصادي الذي يقرّر المساواة بين الأجر والإنتاج، ويضاف إلى ذلك وهو أهمّها تعزيز الرقابة الداخلية لدى المسلم، ومما يساعد في علاج الفساد الاقتصادي، اتخاذ مزيج من الإجراءات والإصلاحات السياسية والتشريعية والمؤسسية.

1 [الأعراف: 75-76]
2 [النحل: 80]
3 [الشعراء: 128]

المطلب الثالث

المبادئ التربوية المستنبطة من عرض القصص القرآني لصور من الفساد الاقتصادي

بعد الانتهاء من بيان النصوص القرآنية التي تضمنت صوراً من الفساد الاقتصادي؛ فإنه يحسن أن أعرّج على أهمّ الجوانب التربوية المستنبطة منها، ومنها ما يأتي:

1/ الفساد الاقتصادي أحد أسباب الهلاك: فما مِن أمّة أَشركت أو أساءت في جانب الاقتصاد إلا وكانت عاقبتها في الدنيا الهلاك، وفي الآخرة الخسران المبِين، والحق أنّ تلك الأمم التي جرّها الرخاء الاقتصادي إلى الكفر والإعراض عن أحكام الله ﷻ قد ظَلمت نفسها قبل أن تَظلم غيرها، فهؤلاء أهل مكة لّما لمْ يشكروا الله ﷻ على ما أَنعم عليهم من رزق، وكذّبوا بنبوّة محمد ﷺ، ألبَسهم الله ﷻ لباسَ الجوع والخوف، وهؤلاء قوم شعيب عليه السلام لّما فصَلوا الدين عن الاقتصاد، أخذَهم عذاب يوم الظلّة، وهؤلاء قوم سبأ الذين وَصف اللهُ ﷻ بلدتَهم بقوله: {بلدةٌ طيّبةٌ وربٌّ غفور}[1]، لكنّهم لّما بَطروا النعمة، فَتح الله ﷻ عليهم السّدَّ، فأَتلف مزارعهم وثمارهم، وهذا قارون لّما لمْ يشكرْ نعمة ربه ﷻ، ونسَب الثراء لنفسه، كانت نهايته الخسف، وهؤلاء أصحاب الجنة لّما مَنعوا الفقراء والمساكين حقَّ الله ﷻ أَهلك بستانهم، وهذا صاحب الجنتين لّما جرَّه المال إلى إنكار البعث والقيامة، أهلك الله ﷻ جنّتيه، وهؤلاء قوم ثمود لّما شَيّدوا المباني المنحوتة في الجبال أَشَراً أُهلِكوا بالصيحة، وهؤلاء قوم عادٍ لّما اتخذوا المباني على سبيل العبث، نزلت عليهم عاصفة، وما هي من المترَفين ببعيد، فالواقع المعاش يشهد انهيار حكومات ودول لّما مارست الظلم الاقتصادي، واستحوذت على ثروات الأوطان بغير حق.

2/ ضرورة مكافحة الفساد الاقتصادي: شَنّ القرآن الكريم حرباً لا هوادة فيها على جرائم الفساد الاقتصادي، ومن أساليب القرآن الكريم في مكافحة هذه الظاهرة سرْد قصص السابقين، والمتأمل في قصص الرسل عليهم السلام -كما عرضها القرآن الكريم-، يَجدُهم قد أَوْلَوا مكافحة الفساد الاقتصادي عناية شديدة؛ وذلك لِسُوء أثَره على الأُمّة سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي، وعليه فإنّ الاحتساب في الجانب الاقتصادي كان من الجوانب الواضحة في دعوة المرسلين عليهم السلام، فقد كانوا مع دعوتهم إلى التوحيد، يُنبّهون

1 [سبأ: 15]

أقوامهم على ما يَقَعون فيه من سلوكيات اقتصادية مخالفة للشرائع، ومن ذلك محاربة شعيب عليه السلام للفساد الاقتصادي الذي وَقع من قومه، وتحذير هود عليه السلام أيضاً قومه من اتخاذ المباني دون حاجة لسُكناها، وتحذير صالح عليه السلام كذلك قومه من الترف.

وما تزال مكافحة ظاهرة الفساد الاقتصادي دأب الدعاة؛ جرياً على نهج الرسل عليهم السلام، ومن ذلك تحذير المؤمنين لقارون بقولهم: {لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ...}[1]، وكما جادل المؤمنُ الكافرَ الجاهلَ صاحبَ الجنتين، وأنكر عليه اغتراره ببستانَيه، فقال له موبِّخاً: {أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا}[2]، وكما وَعظ أحدُ الأفراد في قصة أصحاب الجنة أولئك الطامعين بأن يُعطوا المساكين، فقال لهم معاتباً: {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ}[3].

والملاحَظ وقوع فئام مِن الأمّة الإسلامية في الفساد الاقتصادي في القديم والحديث، ومن هنا ينبغي على المصلحين اليوم محاربة كافة صور الفساد الاقتصادي التي تقع في محيطهم، وهم ليسوا بِدْعاً من المصلحين في ذلك، بل هذا عينُه منهج الرسل عليهم السلام، حيث اتضح أنّ المرسلين تَصَدّوا بإنكار التجاوزات الاقتصادية التي وقعت في عهدهم، والمتأمل في واقعنا المعاصر يجد أنّ الفساد الاقتصادي من أشدّ صور الفساد شيوعاً، وعلى الرغم من شيوعه وخطورته إلا أنه قلّ مَن يلتفت إليه من دعاة التوحيد في زماننا، مما يجعل التبعات على المصلحين كبيرة في إنكار هذا اللون من الفساد؛ إبراءً للذمة، ورفْعاً للعذاب، وإصلاحاً للمَعاش، وحتى لا يتحوّل الفساد سلوكاً متعارفاً عليه، وما مثَل الثائرين في وجه الفساد الاقتصادي إلا كمثَل كُرَيات الدم البيضاء في جسد الإنسان، وكذلك قيام المصلحين بالرقابة والنصح فإنه يَحفظ المجتمع من الهلاك، ويُبرهن على أنّ الإسلام نصير للمظلومين والمضطهدين، قال ﷻ: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}[4].

3/ محاربة الفساد الاقتصادي بكلّ صوره: يمثّل الفساد الاقتصادي ظاهرة مُرَكَّبة؛ إذ إنّ لها أشكالاً عديدة، وتتفاوت صور الفساد الاقتصادي بتفاوت حَجمه، والمتأمل في محاربة الرسل

1 [القصص: 76- 77]
2 [الكهف: 37]
3 [القلم: 28]
4 [هود: 117]

عليهم السلام والمصلحين للفساد الاقتصادي، يلحظ محاربتهم لصوره كافة، حيث اتّجه احتسابُ المؤمن في نموذج صاحب الجنتين لصورة الفساد العقدي الناتج عن الرخاء الاقتصادي، والافتخار بالنعم، كما اتجه احتسابُ المصلحين في نموذج قارون إلى النهي عن الفرح بالمال وعدم الفرح بفضل الله ﷻ، كما اتجه احتسابُ المصلحين في نموذج أصحاب الجنة لصورة تعطيل أداء الزكاة والصدقات، وفي نموذج قوم عاد ظهر أنّ عدم وجود خطط استراتيجية واضحة لاستغلال الموارد يؤدي إلى استنزافها، كما اتّجه احتسابُ هود عليه السلام إلى النهي عن عدم ترشيد الاستهلاك، وفي نموذج قوم ثمود اتّجه احتسابُ صالح عليه السلام لصورة استنزاف الموارد، وإهدار المال في المباني والافتخار بها، وفي نموذج قوم شعيب عليه السلام، قد اتجه احتسابُه عليه السلام لصورة المعاملات المالية المنحرفة من بخس وتطفيف، وفي نموذج قوم سبأ تمثَّل الفساد الاقتصادي في عدم القناعة بالموارد المتاحة، والاستغناء عنها بالموارد بعيدة المنال، حيث تركوا الزراعة، واستعاضوا عنها بالتجارة الخارجية بعيدة الأسفار، مما أدّى إلى انهيار الاقتصاد.

وعليه يجدر بالصادقين اليوم أن يوسِّعوا دائرةَ مفهوم الفساد الاقتصادي في تصوّرهم، والأمّة كلّها مأمورة بتغيير المنكر والنهي عنه، مثلما وجدنا كل نبيّ قد تصدّى بإنكار صور الفساد التي وقعت من قومه خاصة، ومن أجل تحقيق ذلك ينبغي أن يكون داعية التوحيد ابنَ عصره، يعيش واقعه وهموم قومه، ويعالج أدواء مجتمعه، ومن هنا يتحتم على الداعية الحكيم أن يحارِب الفساد الاقتصادي المعاصر بشتى أنواعه، كالربا والجشع وعبادة المال ونهب الثروات والشفاعة المحرمة والرشاوى وتبييض الأموال والتجارة بالمحرمات وبيوع الربا والعِينة، والغش التجاري، والاحتكار، والغلاء الفاحش في الأسعار، والقروض الربوية، وسوء توزيع الثروات، وشراء الذِّمم، وتضييق سُبُل الرزق أمام المصلِحين، وفَرْض دول كبرى لسياساتها على الدول الضعيفة عن طريق الإغراءات الاقتصادية وغيرها، ومن هنا يتعيّن بذل جهود مضنية في مقاومة هذا اللون من الفساد، كتفعيل دَور الإعلام، ودور الأُسرة، والدور التربوي، والخطاب الديني في المساجد.

4/ العاقبة السيئة للفساد الاقتصادي: لا شكّ أنّ للفساد الاقتصادي آثاراً سيئة، ومن تلك الآثار أَكْلُ الحقوق، وتلَف الأموال وهلاكها، كما أَهلك اللهُ ﷻ الأقوام التي أساءت في شُكر نعمة الرخاء الاقتصادي كقوم سبأ وغيرهم، والتأثير أحياناً على مُعتقَد صاحبها، فضلاً عن العذاب في الآخرة، كما وقع في قصة صاحب الجنتين، وقصة قارون.

والناظر في واقعنا اليوم يَلحظ آثاراً سيئة أخرى لهذا اللون من الفساد سواء على الاقتصاد أو المجتمع، فهو يتسبّب في زرْع الأحقاد بين الناس، ويعيد توزيع الثروة لصالح أصحاب النفوذ، ويُضعِف ثقة المواطن بفعالية القانون العام، ويُستخدم كوسيلة لشراء الولاء السياسي للنظام الذي تتقاطع مصالحُه مع مصالح الفاسدين، كما يعمل على زيادة البطالة في المجتمع، إضافة إلى وجود علاقة قوية بين الفساد الاقتصادي والفقر، مما يَدفع المواطنين إلى الهجرة من أوطانهم.

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أمّا بعد: فإنه في خِتام البحث يمكِن الخلوص إلى النتائج الآتية:

1/ الفساد نقيض الصلاح، والاستفساد خلاف الاستصلاح، والمفسدة: ضد المصلحة.

2/ أنّ مصطلح الفساد الاقتصادي في المفهوم القرآني أشمل مما هو عليه في مفهوم الاقتصاد الوضعي؛ إذ يحصر المفهوم الوضعي الفساد الاقتصادي في استغلال الوظيفة في الأنظمة الإدارية لمصلحة شخصية، بينما يتوسع المفهوم القرآني في معناه لِيَشمل كلَّ مخالفة لأحكام الله ﷻ ما دامت تتعلق بالجانب المالي كسْباً وإنفاقاً وغير ذلك.

3/ نظائر الفساد الاقتصادي في القرآن الكريم ثلاثة ألفاظ، هي: الترف، والتبذير، والإسراف.

4/ للفساد الاقتصادي آثار سيّئة، منها أكْل الحقوق، وتلَف الأموال، والتأثير أحياناً على معتقَد صاحبها، والعذاب في الآخرة.

5/ شدّة اعتناء القرآن الكريم بموضوع الفساد الاقتصادي، فالناظر في آياته يجدها كثيراً ما تُندِّد بالفساد وتُوضِّح مخاطرَه في مناسبات شتّى، ومن ذلك عرْضُه لنماذجَ بشريةٍ وقعت في جريمة الفساد الاقتصادي، كصاحب الجنتين، وأصحاب الجنة، وقارون، وقوم سبأ، وقوم شعيب، وقوم عاد، وقوم ثمود، وأهل مكة.

6/ ضرورة الاقتداء بنهج الرسل عليهم السلام والمصلِحين مِن بعدهم في مكافحة الفساد الاقتصادي، ومن ذلك محاربةُ شعيب عليه السلام للفساد الاقتصادي الذي وَقَع من قومه، وتحذيرُ هود وصالح عليهما السلام قومَيهما من الترف.

وفي ضوء هذه النتائج فإنّ الباحث يوصي بما يأتي:

1/ وضع البرامج التوعوية للمجتمع بقضية حرمة المال العام.

2/ تحكيم شريعة الله ﷻ، ومن ذلك تطبيق الدول للعقوبات ضد مرتكبي جرائم الفساد الاقتصادي.

3/ وضع دروس علمية حول ظاهرة الفساد الاقتصادي، ضمن المقررات الثقافية التي تُدرَّس للطلاب في المراحل الدراسية جميعها؛ ليكونوا على وعي بخطره.

4/ ضرورة توضيح صور الفساد الاقتصادي المعاصرة وتجليتها للعامة، لا سيما صور الفساد المقنَّنة.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، والحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

- الاقتصاد الإسلامي في ضوء الشريعة الإسلامية، محمود بابلي، ط2، 1395هـ 1976م، مطبعة المدينة المنورة، الرياض.
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر بن موسى الجزائري، ط5، 1424هـ 2003م، مكتبة العلوم والحكم، المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي، تح: سامي بن محمد سلامة، ط2، 1420هـ 1999م، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1، 1420هـ 2000م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى الترمذي، تح: بشار عواد معروف، ط1، 1395هـ 1975م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، 1407هـ 1987م، دار العلم للملايين، بيروت.
- الفساد الاقتصادي وعلاجه من المنظور الإسلامي، محمد رشيد أبو غزالة، مجلة البحوث والدراسات، العدد (18)، الرياض.
- القاموس المحيط، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط8، 1426هـ 2005م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تح: الإمام الزيلعي، ط3، 1407هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، ط1، دار صادر، بيروت.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، 1364هـ، القاهرة، دار الكتب المصرية.

حمزة عبد الله سعادي شواهنة. مواليد 1983م (hamzahamza1985@outlook.sa)
متحصل على ليسانس الدعوة الإسلامية سنة 2006م كلية الدعوة الإسلامية.
متحصل على ماجستير أصول الدين (القرآن والسنة) سنة 2014م جامعة النجاح الوطنية غزة فلسطين.
محاضر جامعي غير متفرغ في تفسير وعلوم القرآن بكلية العلوم التربوية جامعة القدس المفتوحة. قلقيلية فلسطين.
من إنتاجه العلمي: النداء الإلهي للنبي محمد ﷺ في القرآن الكريم. (رسالة ماجستير) .